

## اشتغال الذاكرة وعنف الواقع في رواية " أخاديد الأسوار " لـ الزهرة رميج

أ/ مشقوق هنية

جامعة بسكرة

## المخلص :

## Résumé :

Cet article tente de rechercher la spécificité du roman marocain, d'une part, et de retracer les divers types de violence à travers le dialogue de la mémoire avec ses divers mécanismes, afin de reconnaître les moments les plus sombres et les plus durs de l'histoire du Maroc dans le roman " *Akhadid El Aswar* " de Zahra Remidje, d'une autre part.

Donc, les références sur lesquelles s'ouvre ce roman en ont fait un symbole de mémoire et un conflit de ce que l'écrivaine a vécu et subi de violence, d'anxiété ainsi que la sensation de perte sous toutes les formes, dans les vestibules d'expérience de son mari, avant et après la détention. Et cela s'avère évidemment dans les différents dialogues, événements, techniques stylistiques et narratives qui semblaient être très attachés à cette amère expérience qu'a connue le Maroc au fil de son histoire contemporaine.

## Mots clé :

l'histoire du Maroc, détention, violence, la mémoire.

يحاول هذا المقال البحث في خصوصية الرواية المغربية من جهة، كما يتحرى تتبع أنواع العنف عن طريق محاورة الذاكرة بآلياتها المختلفة قصد التعرف على أحلك اللحظات عتمة و قسوة في تاريخ المغرب في رواية " أخاديد الأسوار"، من جهة أخرى.

المرجعيات التي انفتحت عليها هذه الرواية جعلتها أكثر توسما للذاكرة و اشتباكا مع ما عانتها و عاشته الكاتبة من ضروب العنف و القلق و الإحساس بالضيق وسط دهايز تجربة زوجها قبل و بعد الاعتقال، و يظهر ذلك جليا في مختلف الحوارات و الأحداث و التقنيات الأسلوبية و السردية المتنوعة التي بدت شديدة الاتصال بهذه التجربة المريرة التي مرّ بها المغرب في تاريخه المعاصر.

## الكلمات المفتاح:

الرواية المغربية، الاعتقال، العنف، الذاكرة.

## تمهيد

إن الحديث عن الذاكرة يحتاج إلى بحث معمق في مفهومها وعلاقتها بتاريخ الإنسان ووجوده لأنها مستودع أفكاره ورؤاه وطرائق عيشه وكل ما يحيط به من تفاعلات اقتصادية وسياسية واجتماعية وذاتية، فالذاكرة مرآة عاكسة لزمان يرفض الانحاء ويتوسل الظهور والعودة عن طريق التذكر الذي يتمظهر بطرق مختلفة تعمل على إيداع ما هو مخزون في الذاكرة في شكل تاريخ أو أدب أو سير وغيرها

ظهر الاهتمام بالذاكرة مع الفلسفة خاصة الوضعية التي تعد من أشهر المدارس الفلسفية التي بحثت في مسألة الذاكرة وقدمت نظريات مختلفة عنها وكان ذلك منذ القرن السابع عشر ويشير "أرسطو" في مقارنة له بين الذاكرة والتذكر أننا حين نتذكر يكون في داخلنا ما نسميه الصورة والانطباع ، وهو ذاته ما أكدته "هوبز" Hobbes بقوله ( إن من يدرك أنه قد أدرك فإنما هو يتذكر، فالذاكرة حاضرة في كل التجارب الإنسانية الحزينة والمفرحة لارتباطها الوثيق بالماضي وهو ما أكدته "هنري برغسون" Henri Bergson في معرض حديثه عن الذاكرة مشيراً إلى أن الإنسان لا ينسى وأن تجاربه المختلفة تتوارى في منطقة اللاوعي ثم يتدخل العقل الواعي ليعيد لهذه التجارب انتظامها عبر جريانها في زمان مرتب وممنهج<sup>(1)</sup>.

الذاكرة هي مخزن الذكريات ومستودع ماضيها لقدرتها على اختراق الحواجز الزمنية المتعاقبة والظهور من جديد في راهن الإنسان بصور مختلفة، لهذا تمت مراجعتها من قبل الأدباء والروائيين الذين استثمروا وجوهها المختلفة الفردية والجماعية لتمثيل واقع الأنساق الثقافية المختلفة.

وبوعي مسلط على الماضي تم تأطيرها سردياً عبر الرواية لقول الحقائق جمالياً وفنياً، وبرز هذا في سياق التحولات التي طالت الكتابة الروائية العربية والمغربية على وجه التحديد فقد اشتغل الكتاب المغاربة على مساءلة الذاكرة من أجل دفعها وترسيخها في أذهان الجيل الجديد الذي لم يعيش سنوات الجمر والرصاص (لتكوين ذاكرة جماعية وطنية عن تاريخ عنف الدولة لطى صفحة الماضي وبناء العدالة الانتقالية عن طريق الإنصاف والمصالحة)<sup>(2)</sup>.

استدعى الروائيون هذا الزمن من أجل تصحيح الأخطاء وسرد أخبار المنسيين والمقموعين على نحو تنبئ في الكتابة تمثيلاً لواقع الحياة التاريخية والاجتماعية والسياسية وسعوا إلى مفوضة الذاكرة ومحاورتها للتأسيس لمواطنة حرة وعادلة ومشاركة في إعادة تشكيل الزمان

والمكان والشخصيات، فالمتخيل الروائي يتوسل الاستعادة عبر اللغة ومزج الواقع بالمتخيل لكتابة الماضي وإطلاق سراح الذكريات الشاهدة على أبشع أنواع القمع وخروقات الماضي لحفظ تجربة المقموعين المسجونين من التلاشي والانفلات وهو ما يؤكد على أن (الرواية خطاب منتج للمعرفة) <sup>(3)</sup> قادر على طرق أبواب المسكوت عنه من منظور سردي منتج للدلالات والمعاني فالذاكرة بتوصيف المؤرخ الفرنسي "بيير نورا" (ما تبقى من الماضي في أذهان الناس أو ما يتصورونه بخصوص هذا الماضي، فهي موروث ذهني يختزل مسيرة من الذكريات الفردية والجماعية التي تغذي التمثيلات المجتمعية) <sup>(4)</sup>.

والذاكرة التي أراد الكتاب المغاربة مساءلتها والحفر في تضاريسها واستحضارها من أجل استعادة أحداث سنوات الجمر والرصاص هي التي كانت في فترة ما من التاريخ طابوهات مسكوت عنها (بفعل خضوع فعل التذكر لقانون الممنوع والمسموح) <sup>(5)</sup>، هي إذن الذاكرة المحرمة في المجتمع المغربي الذي لاقى فيه الفرد أنواع التكتيل بسبب النضال من أجل الحرية والعدالة والرغبة في التغيير حتى إننا يمكن أن نصفها بذاكرة الانتهاكات الجسدية لحقوق الإنسان، لأنها تتعلق بالمرجعية السياسية.

وهو ما اشتغلت عليه الكاتبة " الزهرة رميج" في روايتها " أخاديد الأسوار"، حيث وظفت الذاكرة لسرد تفاصيل حياة الزوج المعتقل بأحد السجون المغربية التي ضمت بين جدرانها المتآكلة العديد من المظلومين، هي تجربة عنيفة لم تخلف إلا الألم والمعاناة لأصحابها وهو ما جعل الكاتبة توظف السرد الاستذكاري بجميع محفزاته، إلى جانب توظيفها لفضاء السجن وطل ما يتصل به من مآسي لكي تؤصل لتجربة مريرة كان محورها العنف السياسي الذي لم يتوان في التكتيل والظلم والغلطرة التي أدت إلى خلق صراع مرير بين السلطة والمعارضة.

### 1/ تراكمات السرد الاستذكاري:

يحيل مفهوم الذاكرة على الزمن الماضي، ويعد الاستنكار من بين آليات تمثيله واستحضاره وفقا لما يستدعيه الحاضر الذي يضل بمكوناته وأحداثه يخرش في الذاكرة ويطلبها بين الحين والآخر بالعودة إلى الماضي من أجل تمثيله (فالحظة الحاضرة من أهم محفزات الاستنكار بما تتضمنه من شخوص أحداث وأمكنة وأشياء تثير الذاكرة) <sup>(6)</sup>. فالشخصية تتعرض لجملة من المنبهات والمثيرات في حاضرها تكون بمثابة محفز يداعب الذاكرة المسكوت عنها ليوقظها من سباتها العميق كي تطفو إلى السطح وتقاوم المحو والنسيان، ومن المحفزات التي وظفتها الكاتبة في روايتها "أخاديد الأسوار" الموسيقى التي لعبت دور

الإثارة لذاكرة البطلة التي أفينها مغلفة، فقد كانت سعيدة بحاضرها رغم ما يتخلله من ثنائيات ضدية كالفرح و الحزن، الأمل و اليأس، التصديق و التكذيب ( سعيدة كنت، سعيدا كان كل ما أراه حولي، لم يكن تفكري يتجاوز تلك اللحظة التي تغمرني بجمالها وروعها، لقد أغلقت ذاكرتي أبوابها السبعة بإحكام شديد في وجه الماضي و المستقبل، قمت أرقص مع الراقصين و الراقصات، على ايقاع الموسيقى العربية السريعة، مزهوة بأناقتي)<sup>(7)</sup>.

لكن حاسة السمع أيقظت الذاكرة المغلفة، وفتحت أبوابها السبعة الموصدة، حينما كانت البطلة في غمرة السعادة ( كانت ضحكتي لا تزال ترن عندما انطلق صوت اسمهان من أسطوانة الليزر " ليت للبراق عينا! معه انطلق السهم مصوبا بأن دقة نحو قلبي مغتالا ضحكتي مطفئا نظراتي المشفقة، ساحبا قناع السعادة من فوق وجهي، شعرت بملامحي تنقلص (...) انتقضت كأم مجنونة تذكرت بعد سقوط الظلام طفلها الوحيد الذي كان يلعب خارج الدار ولم يعد بعد...) <sup>(8)</sup> يبدو أن البطلة لم تكن تستحضر الماضي نهائيا، لكن سمعها وقع صدفة على أغنية استدعت حفرا شاملا في الذاكرة، فالعودة هنا ليست عودة هروبية من لحظة راهنة مؤلمة أو خيبة أمل ألمت بها بقدر ما هو إيقاظ مفاجئ للذكريات، ليتم بعدها الانتقال من وجع إلى وجع، لتفريغ شجون الذات القلقة إزاء مصيرها ومصير مجتمع بأكمله، ولنقد الاستبداد السياسي الحاصل في السجون في مرحلة ماضية من تاريخ المغرب فكانت بذلك الذكريات وثيقة شهادة على تلك الممارسات وعنوانا بارزا لتاريخ العنف والظلم.

إن تراكمات السرد الاستذكاري لم تكن تقنية زمنية فحسب، بل جيئ بها لطرح العديد من القضايا التي لازالت عالقة بذاكرة البطلة بجميع تفاصيلها، وتحتاج إلى مراجعة لإعادة كشفها من جديد فمن السجن وعذاباته، إلى الزوج المتوفى وخيانة الأصدقاء وسقوط الأحلام، إلى قضية التعويض، وعقدة اللغة وجميعها قضايا استطاعت البطلة المرهقة من حملتها أن تتكى على السرد الاستذكاري لتبوح وتخبر وتهمس، وتغزل نسيجها السردى بخيوط من الألم و الحزن، و التيه و الشوق و الحنين للزوج المتوفى الحاضر بشيء من القدسية في ذاكرتها ويظهر ذلك جليا من خلال جملة الاستذكارات التي أعادت البطلة سردها ( تأتي رائحة سيجارتك، أراها تحترق بين شفتيك (... ) أشعر بدفء يدك وهي تداعب وجهي، تتحسس ملامحه واحد واحد، رائحة سيجارتك تنير في شعور لا يعلمه سواك تمتد ذراعك لتلف بحرارتها كنفى العاريين، تضميني إلى صدرك تسكر في الطيب المنبعث من أنفاسك فأتلأشى

بين أحضانك<sup>(9)</sup> تنهض الذات لتجد سراديب الماضي تطوقها وترحل بها إلى العالم الحميمي الذي كان يجمعها بزوجها، العالم الذي لم تستطع نسيان تفاصيله الجميلة التي علقت بتلاقيف الذاكرة، حتى أن أحد الأطباء النفسانيين استغرب ذلك ( عندما زرت الطبيب طرح علي أسئلة كثيرة، أسئلة منتظرة و أخرى غير منتظرة، ذهب معي بعيدا اقتحم عالم خصوصياتنا الحميمة، أصابته إجاباتي بالحيرة استغرب هذا الوفاء المستمر حتى بعد هذا الغياب)<sup>(10)</sup>.

تستخدم البطلة أكثر من لفظة دالة على الزمن الاستذكاري لتتحول حياتها إلى حركة انسيابية بها جلب واستدعاء لذكريات عاشتها وتود أن تبوح بها لتحرير الذاكرة من أسرها من بينها (هل تذكر، تذكرتك، استحضرتك، استحضرت) وغيرها من الألفاظ الدالة على الرغبة الجامحة في أن تقول ذاكرتها وتاريخها ومجتمعها، ذاتيتها وغيرها تقول (استحضرتك ذلك اليوم وأنا أشاهد عبر شاشة التلفزيون أشلاء الأبرياء المتناثرة في كل مكان و الدماء تسيل أنهارا واستحضرت نقاشاتنا، استحضرت تنبؤاتك ونضرتك الناقدة في أعماق الواقع، استحضرت عيون زرقاء اليمامة، استحضرتك في حالات ومواقف كثيرة)<sup>(11)</sup> ينقل لنا هذا المقطع وعيا ثقافيا يشي بخطورة مجريات الواقع في تلك الفترة؛ خطورة أسهمت في نقشي الظلم والفساد والعنف، والقهر والموت في محيط متعفن وفساد.

وفي سياق البوح والاعتراف بفضاعة وجع الذاكرة وظفت الروائية أقوالا وأفكارا متنوعة لمفكرين وفلاسفة أمثال "نتشه وماركس"، بغرض تعرية فكرها المضطرب والمأزوم من بينها (الاغتراب والضياع أن يفقد الإنسان حريته واستقلاله الذاتي ويصبح ملكا لغيره تنتصرف السلطات الحاكمة فيه تصرفها في السلع التجارية)<sup>(12)</sup> وهو قول يعزى للفيلسوف كارل ماركس الذي استفاد من أبحاث "هيجل وفيورباخ" في حديثهما عن الاغتراب، وحول نضرتة لهذا المصلح من مفهومه الفلسفي إلى مفهوم اجتماعي واقتصادي وتجاوز بذلك المفهوم المثالي للاغتراب في الفكر الأوروبي (وحلله في سياقه التاريخي وفي العمل في المجتمعات الرأسمالية والأوضاع اللاإنسانية ليظهر الاغتراب لديه بأنه حالة عامة في المجتمعات التي حولت العامل إلى كائن عاجز وسلعة بعد أن اكتسبت منتجاته قوة مستقلة ومعادية له)<sup>(13)</sup> وهي أقوال ملائمة لتشخيص درجات القهر والاغتراب وصورة قوية لانتقاد المجتمع وتعرية أخطائه.

أحدثت لفظة (استحضرت) التي تكررت عدة مرات جرسا موسيقيا وأخذت بعدا دلاليا، كشفا عن الرسالة التي حاولت الكاتبة تقويضها في خطابها الروائي الذي أرادت أن تعيد من خلاله قراءة التاريخ المغربي في أرحج فترات؛ فترات الجمر والرصاص التي كان فيها الزوج مسطرا لنفسه هدفا ساميا حاول من خلاله الدفاع على حقوق الفقراء و المغلوب على أمرهم، ورفع شعاراتهم المتوارية خلف حناجرهم ومقته للأحزاب التي كانت تتكتل في كل موسم انتخابي لشراء أحلامهم وبيعها بعد ساعة من جلوسهم على الكراسي، وهو ما يعطي لمفهوم الأدب بعدا أساسيا يتمثل في (مقاومة كل أشكال المحو والنسيان سواء تعلق الأمر بالذكريات الخاصة أو بالذاكرة الجماعية) (14).

اشتغلت الروائية على التداعيات التي فجرتها البطلة باتجاه الماضي، لنقف من خلالها على جروح الزوج المستحضر والمتوفى متأثرا بالآلام وأحزان نقشتها الأسوار على جسده وحفرتها جرحا غائرا في نفسيته؛ الزوج المناضل صاحب المبادئ السمحة التي لم يستطيع أن يبيعها، والتي ورثتها الزوجة وبقيت متعلقة بآثارها و ندوبها.

إنّ استخدام البطلة لتقنية الاستذكارات، جعل الزمن الماضي يسطو على حياتها لتتربع بدورها في محرابه، فلا تغادر صغيرة ولا كبيرة عاشتها مع زوجها إلا وحكتها، حتى تحول إلى نواة مركزية في الرواية ففي حالات كثيرة كان يستلم زمام الحكي فيسرد بلسانه ما وقع، إنه الغائب الحاضر الذي تحاوره وتحكي له آلامها وهمومها تقول: (أصبح العجز و القهر يسيطر علي النوم يجافيني باستمرار، أراك تستغرب أنت محق ألم تكن تعطيني على قدرتي السريعة على النوم؟ هاقد أصبحت أعاني ما كنت تعانيه من أرق) (15).

## 2/عنف المشاعر:

تحدث "غاستون بشار" في كتابه "جماليات المكان" عن الذاكرة الأليفة والقيم الحميمة التي تربطنا بالأمكنة الماضية، والتي يمكن أن ندرج في مقابلها الذاكرة المعادية التي تحمل بين طياتها ما يقر بعنف المشاعر وعفونة الواقع وهو ما أرادت الكاتبة "زهرة رميج" التي انتكأت على وجع الذاكرة المعادية لتعرض العنف الممارس ضد الزوج في تلك الفترة حيث تم الإنصات إلى النبض الداخلي للشخصية ليمتزج العنف الفردي بالعنف العام ويتحول الألم والوجع من مجرد نصوص وجدانية إلى حالة اجتماعية وقضية سياسية تم التطرق من خلالها إلى المحرك الرئيس لهذه المشاعر الأليمة؛ إنه فضاء "السجن" أو لنقل عبء الذاكرة الذي أرادت الكاتبة من خلاله تجسيد تجربة رجل آمن بحبه للوطن وتمنى له الأفضل، لكنه

مني بالسجن والخسران السبب الذي جعل البطلة تعجز وتفقد السيطرة على التحكم في ذكرياتها التي انهمرت وأخذت مجراها هذه المرة إلى هذا الفضاء المأساوي لما يمثله من حضور مواز للعتمة والقسوة والرهاب، بل ومواز لفترة الجمر والرصاص التي مرت بها المغرب واكتوى بنارها من كان السجن حتفه.

فالكاتبة شرعت أبواب الذاكرة لتجد صداها هناك، واستندت إلى تقنية الإخبار لتتحدث عن الاعتقال في السجون المغربية، لتعكس صورة التعذيب وجملة المشاهد اللاإنسانية التي واجه فيها الفرد قسوة الجلادين وسطوتهم، اختارت الروائية رجلا عظيما بالنسبة إليها زوجها الذي دخل السجن فحرم من الحرية والحركة والكلام، فكانت الوحدة والاغتراب مصيره تقول البطلة ( صعدنا المنحدر من جديد لأقف مرة أخرى أمام السجن، ليطل علي وجهك الطفولي لتطل علي بنظرتك المنكسرة، نظرتك التي انكسرت هاهنا ولم تلتئم أبداً، نظرتك التي بلغت أوج الانكسار قبل رحيلك) <sup>(16)</sup>، وتقول أيضاً (عاودني نفس الشعور الذي شعرت به في أول زيارة مع اللجنة الطلابية ، الإحساس بالذنب أنا أستمتع بالحياة وبجمال البحر وزرقته وسمائه الصافية وصخوره أمواجه ورذاذه وعطره وشمسه ...و...و...وأنت وأمثالك في تلك الزنازين المظلمة التي تتأكل جدرانها بفعل رطوبة البحر؟ يا للمفارقة؟) <sup>(17)</sup> هكذا كان مصير مجموعة المتقنين والنشطاء السياسيين الذين قوبلت حركاتهم بالاعتقال والتعذيب والنفي بفعل السلطة التي اعتبرتهم طبقة أدنى امتطتها واعتلت فوق أكتافها استنادا لنسق الهيمنة والاستبداد.

نمت الاستذكار في رحاب النص حتى أصبحت هاجس الذات وأرقها، الذي لم يمنحها إلا حزنا ودموعا، لأن الذات تستذكر أكثر اللحظات ألما وقهرا، إنه جحيم السجن وما يحتويه من وحدة حادة، ووحشة قاسية تتولد من افتقار السجين لكل مؤهلات الحياة الطبيعية وعجزه عن التواصل وتحقيق الأحلام ( إن فترة الاعتقال بالسجن تجربة مريرة قاسية لا تمحي من الذاكرة و الشخص الذي يمر بها يظل طيلة حياته يستعيدها بمرارة و ألم شديدين سواء بالرواية الشفهية، وعبر تدوينها بين دفتي كتاب، وهناك كتب كثيرة يؤرخ فيها أصحابها لفترات اعتقالهم، وكذا أشكال التعذيب النفسية و الجسدية التي مورست عليهم من لدن الجلادين) <sup>(18)</sup>.

شكل فضاء السجن جسراً للروح وآخر للحنين واستند اختياره إلى إستراتيجية مبرمجة جعلت البطلة تفشل في التملص من الذكريات التي كانت في الماضي واقعا مؤلما وأصبحت في

لحظة الكتابة مرجعا وورقة رابحة لاستعادة ذلك الواقع ونقل فضاءاته وتعريتها أمام المتلقي، إنه فعل هدم للذكريات التي كانت وبناء ما يجب أن يكون فكتابات السجون (تجمع على اختلافها بين البوح والتوثيق للتعبير عن تجربة الذات والتأسيس لذاكرة مغايرة للتاريخ الرسمي)<sup>(19)</sup>.

إن جل الاسترجاعات التي قامت بها البطلة نحو فضاء السجن أخذت حيزا كبيرا من زمن السرد لتستحضر لنا من خلالها أجواء القلق و الانكسار المعاناة التي أحاطت بالزوج المسجون، ولنقل هذه المشاعر تتكى البطلة على تقنية الوصف من أجل تصوير المقبرة التي سجن فيها الزوج تقول الساردة ( يشدني السجن إلى جدرانه المتأكلة إلى أقبيته المظلمة، إلى عوالمه المفعمة بالمعاناة والألم، يعرف أراحنه الجنائزية التي تهلك الأذان وتفتت الأنفس)<sup>(20)</sup>.

ليس غريبا إذن أن يغزو الرواية الحنين إلى الماضي الذي يمثل أزمة الذات الساردة وهوسها وهو غزو وجد مرتعه في ظلال الذاكرة التي لم تستطع نسيان فضاء موحش ومريب مقترن بالمعاناة و الألم لذلك فإن عمر الإنسان فيه يصبح قصيرا وعلاقته بالزمن تتلاشى، فضاء تشع منه روائح التعذيب الشديد تقول واصفة المسجون وهو يتعرض للتعذيب ( يتعالى هدير الأسواط، وهي تجلد الأجساد الفتية، يترأى لي جسدك الجميل مصرجا بدمائه، أرى الشعر الغزير الذي يكسو صدرك و أطرافك تكسيها حمرة الدم، أرى البرغوث يرعى في غابة ساقيك يمتص ذلك النزر اليسير المتبقي من دمك)<sup>(21)</sup>.

في هذه القبور المنسية ذاق الزوج أبشع أنواع العذاب والغبن حتى أصبح جسده مرتعا للبراغيث التي شربت ما تبقى من دمه ( إنه تدمير مواصل للجسد السجين المهان داخل فضاء تتداخل فيه جدران الاسمنت، فيبدو بذلك السجين مقتلعا في المكان ومنقطعا عن الزمان، كأنه غريق في بحر الظلم و الظلمات)<sup>(22)</sup>.

فعبير تراكمات السرد الاستذكاري تم التأكيد على حياة السجين الذي أحس بمرارة الاعتقال واهله ( أراك مفزوعا هلعاً متقزرا لا تطيق نفسك ولا غيرك، ألسنت ابن الطبيعة البكر؟ ألسنت ابن الجبال و الغابات العذراء؟ فكيف لك التعايش مع واقع الرطوبة و العفونة، والحشرات الدنيئة؟)<sup>(23)</sup>، ليس غريبا أن يشعر السجين بهذه المشاعر وهو قابع قاب قوسين في فضاء للتمزق والتلاشي والاعتراب، لأنه لغم قد يؤدي بحياة السجين أو يزرع في قلبه ونفسه مشاعر الانكسار حد الموت<sup>(24)</sup>.

استطاعت الكاتبة أن تحفر عميقا في فضاء السجن لتصور التفاصيل التي تعكس معرفة عميقة به؛ تلك المعرفة التي لم تقتصر على وصف مشاهد التعذيب والتتكيل ولكنها تغلغت عميقا في النسيج السياسي والاجتماعي لنقول ذاكرة المسجونين الناجون من طوفان الأسوار والذين تنوعت ردود أفعالهم فمنهم من لاذ بالصمت واكتوى بناره ومنهم من عقد صلحا كاذبا مع الحاضر لنسيان الماضي الملعون .

هكذا يسترسل الوصف من الحسي إلى المعنوي لوصف مشاعر السجين الذي سيطر عليه الحزن والهلع، إنه الأئين المنبعث من أعماق الذات الجريحة التي لم تستطع تقبل وضعها وهي مدفونة مغلق عليها في المعتقل تنتهك كرامتها وتداس بالنعال بسبب مواقفها وآرائها التي لم تلق تقبلا من طرف الجميع حتى الأصدقاء، تقول ( هالتك ظاهرة الانسحاب من الحزب الذي تربيته في أحضانه وآمنت بمبادئه وأخلصت له)<sup>(25)</sup>.

إنها معاناة لا حدود لها خارج الأسوار وداخلها جعلت الزوج ينفصل عن كل من هم حوله ويلوذ بالصمت، تقول الساردة واصفة صمته ( أضربت عن الكلام، واعتبرت الصمت حكمة، لأننا أمة رأسمالها الكلام فحسب)<sup>(26)</sup>، لم يكن للزوج وسيلة سوى الإضراب عن الكلام والدخول في دوامة الصمت من أجل تصوير رفضه الشديد للواقع المزري الذي تتخط فيه أمة لا تتقن سوى الكلام ورفع الشعارات، التي لا يمكن أن يرى منها بصيص أمل يلوح في الأفق البعيد، لأننا أمة لا تؤمن بالفعل و التغيير .

رغم أن الإنسان يتحلى بالقوة و الصبر والتحمل في المواقف الصعبة، إلا أنه ينطوي على مشاعر الضعف و السأم تجاه الذين كانوا سببا في تشويه جسده ووأد أحلامه وتمزق مشاعره وانكسارها، لذلك حري بنا التساؤل حول مآل هذه المشاعر، هل يمكن للتعويض المادي أن يشفي هذه الجراح ويضمدها؟

لنعلن بذلك حالة استنفار كالتى أعلنها الزوج حينما قدم له هذا الطلب تقول الساردة ( تذكر طبعنا ضحايا السجون و المعتقلات السرية، ألسنت واحدا منهم؟ تذكر أيضا التعويض تلك الكلمة التي أثارت فيك زوبعة الغضب و الألم، تلك التي أثارت سخريتك السوداء، هل يمكن تعويض ما فات؟ وبأي مقياس تقاس الآلام و المعاناة)<sup>(27)</sup> لكن هل يمكن للتعويض أن يهزم ويتغلب على مشاعر الظلم و القهر، وهل يمكن له أن يخرج المتضرر من تلك الدوائر المعتمدة والمغلقة، دوائر الذل والهوان التي حرمته حقه في الكلام، وحولته إلى متمرّد على السلطة وجب إسكات صوته والتخلص من أفكاره.

فعلا لا يمكن للجراح النفسية أن تلتئم وتشفى خاصة إذا كانت الحياة قد تعرضت لسرقة زمنية أبادت كل أمل في التغيير، وفي مقابل ذلك يعرض السارق تعويضا ماديا لقهر مشاعر العذاب والألم والتسلط ولهذا كانت الذاكرة حاضرة بقوة كي يزودنا بالرفض القاطع لمثل هذا الطلب "التعويض" تقول الساردة (كنت تصيح في وجه كل من يدعوك إلى المطالبة بحقك في التعويض، ذلك أن المعاناة التي عانيتها، والآلام النفسية التي ظلت سوسة تنخر جذعك من الداخل، لا يمكن لمال الدنيا محوها والقضاء عليها)<sup>(28)</sup>، هكذا رفض الزوج أن يبيع آلامه مقابل حفنة نقود وفتات موائد على حد تعبير الروائية لأنه ناقد ورافض على المجتمع، ورافض للوعي الجمعي الذي يبلور مثل هذه الأفكار الباعثة على التهميش والتحقير.

شكل استحضار قضية التعويض لحظة ارتداد إلى الماضي، ماضي الرفض المطلق لمسألة الاستهزاء والاستهتار بالمشاعر، ولعل الإحساس نفسه كنا قد لمسناه عند البطلة عندما أرادت نقد الحاضر الذي لم يتخل عن ممارساته الفجة، وذلك حينما عمدت إلى استعادة فترة من عمر رجل قضاها وراء الشمس ولأن الزمن يعيد نفسه عادت قضية التعويض من جديد، لكن ليس من أجل الإنصاف وإعطاء الحقوق بل للإهانة والازدراء تقول البطلة (كان القبول بتقديم الطلب، تصور نحن الذين نطلب! حتى و الحديث يدور حول الإنصاف تظل الإهانة قائمة)<sup>(29)</sup> وتقول أيضا ( طلب مني إحضار الإثبات الذي يؤكد أنك كنت من النزلاء المحظوظين في الفضاء المأساوي)<sup>(30)</sup>، فالزوجة مطالبة بإحضار دليل إقامة زوجها في تلك القبور المنسية التي ذاق فيها ألوان العذاب والاهانة وتعثر فيها برهاب الحبس و الاغتراب، مما يؤكد حقيقة السجون السرية والاعتقال العشوائي التعسفي المصبوغ بلون التمرد السياسي. تفصح الذاكرة التاريخية المنسية عن ماضي أليم، عسر على الروائية الانفلات من قبضته، وكأنها تريد أن تقول أنها ضد النسيان وضد الصمت لحفظ تجربة المعتقل من النسيان والتلاشي (خلف أقبية الظلام الحافل بماضي الانتهاكات الجسمية لحقوق الإنسان والاعتقالات التعسفية التي ميزت التجاذب السياسي بين المؤسسة الملكية والقوى السياسية حول شرعية مابعد الاستقلال)<sup>(31)</sup>.

انفتحت الذكريات وانسابت، وانهمرت لتتحرك البطلة عبرها من الماضي إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى الماضي في حركة ارتدادية، وفي كل حركة تتوهج الذكريات وتتقد بداخلها نار الاشتياق إلى من سكن الذاكرة بأفكاره ورواه ومبادئه - الزوج المتوقى - الذي لم يكن مقصودا

لذاته بقدر ما كانت القضايا السالفة الذكر هي العمود الكهربائي الذي أرادت البطلة إضاءته للمتلقي، كي يعلم أن الحاضر امتداد للماضي، ولهذا السبب لم تعد تستشعر وجودها خارج أسوار ذلك الماضي، بعد أن أصبح الحاضر عقما عاجزا عن إنجاب حلم واحد. لكن الحياة لا تستحق ذلك، لأن الأمل يبقى نابضا بالنسبة للساردة في الصفحة الأخيرة من الرواية التي بدت مشدودة إلى الزمن السبعيني من خلال عرضها لأحداث سوداوية تقر بوضع الساردة المتأزم والحزين بعد أن أسرت نفسها في ذلك الزمن واختلط حاضرها بماضيها ليزجا بها في عالم الحلم لينتصر الحلم ويتحول إلى ترياق للحياة طعمت به البطلة لتتفقد في الأخير كطائر أنهكه الوقوف على عمود الذاكرة و الانتقال من وجع إلى وجع. هكذا تراقصت حروف الرواية على أنغام عديدة فمن الألم والضياع إلى الشوق والحنين إلى الغربة والاعترا ب لنتهي في الأخير بأحرف هادئة وممطرة فيها من الأمل ما يدعو إلى استمرار الحياة والبحث عن غد أفضل.

ويتعدد الاستذكارات التي طفح به المنجز السردى أخايد الأسوار " للزهرة رميج" يمكننا القول بأنها شيدت عالمها السردى ومحكياتها المتنوعة الماضية استنادا إلى جدران السيرة الذاتية، والتي هي في عمقها نوع من التمرد على قوانين الصمت والنسيان كما يمكن أن تكون وسيلة للفت الانتباه إلى مختلف التجاوزات التي تعد امتدادا للماضى من أجل البحث في أسبابها وممكنات فعلها في الحاضر.

### الهوامش:

- (1) - عبد المنعم شيحة، أثر الذاكرة في تحويل المراجع الروائية قراءة في تشكيل المكان القصصى عبر الذاكرة، مجلة الخطاب العدد 18، ص 89.
- (2) - إدريس الخضراوي ، سرديات الأمة تخيل التاريخ وثقافة الذاكرة في الرواية المغربية المعاصرة ، دار أفريقيا الشرق، المغرب، 2017، ص 91.
- (3) - المرجع نفسه، ص 94.
- (4) - عزيز البريكي- رشيد توهو ، الذاكرة المروية وعدالة الانتقال، مجلة إضافات، العددان، 26-27، 2014، ص 92.
- (5) - إدريس الخضراوي ، سرديات الأمة تخيل التاريخ وثقافة الذاكرة في الرواية المغربية المعاصرة ، ص 98.
- (6) - مها حسن الخضراوي، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004، ص 68.
- (7) - الزهرة رميج، أخايد الأسوار، دار فضاءات للنشر و التوزيع، عمان، ط1، 2015، ص 08.
- (8) - المصدر نفسه، ص 08.

- (9) - المصدر نفسه، ص 09.
- (10) - المصدر نفسه، ص 84.
- (11) - المصدر نفسه، ص 148.
- (12) - المصدر نفسه، ص 97.
- (13) - حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية ، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان، ط1، 2006، ص 39.
- (14) - إدريس الخضراوي، سرديات الأمة، ص 100.
- (15) - المصدر نفسه، ص 84.
- (16) - المصدر نفسه، ص 45.
- (17) - المصدر نفسه، ص 41.
- (18) - علي العلوي، الذات المغتربة و البحث عن الخلاص دار الوطن، الرباط، ط1، 2013، ص 184.
- (19) - شعبان يوسف، أدب السجون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2014، ص 17.
- (20) - الزهرة رميج، أخاديد الأسوار، ص 51.
- (21) - المصدر نفسه، ص 51.
- (22) - علي العلوي، الذات و البحث عن الخلاص، ص 186.
- (23) - الزهرة رميج، أخاديد الأسوار، ص 51.
- (24) - علي العلوي، الذات المغتربة و البحث عن الخلاص، ص 147.
- (25) - الزهرة رميج، أخاديد الأسوار، ص 108.
- (26) - المصدر نفسه، ص 100.
- (27) - المصدر نفسه، ص 26.
- (28) - المصدر نفسه، ص 26.
- (29) - المصدر نفسه، ص 37.
- (30) - المصدر نفسه، ص 38.
- (31) - مولاي عبد الحكيم الزاوي، جدل التاريخ والذاكرة في الاسطوغرافيا المغربية ، حفريات في الذات المغربية المفهورة ، ص 1.